

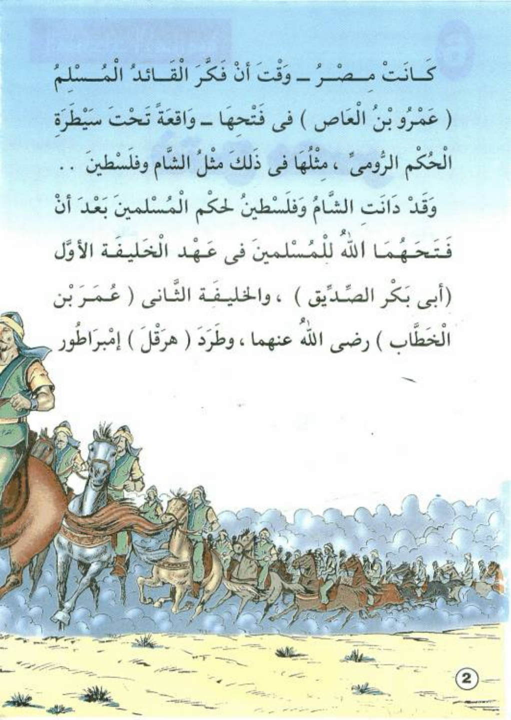


فتح مصر

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

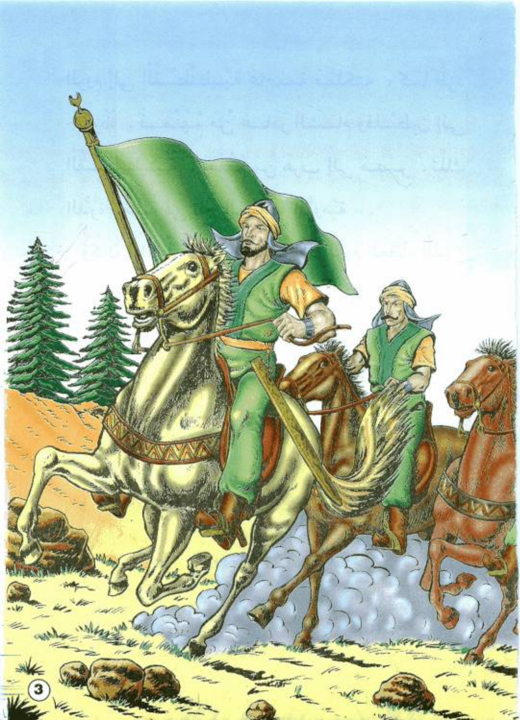
رسوم
إبراهيم سمرة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



كَـانَتْ مِـصْـرُ ـ وَقْتَ أنْ فَكَّرَ الْقَـائِدُ الْمُـسْلِمُ (عَمْرُو بْنُ الْعَاص) فى فَتْحِهَا ـ وَاقِعَةً تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْحُكْم الرُّومىِّ ، مِثْلُهَا فى ذَلِكَ مِثْلُ الشَّام وفلَسْطينَ . .

وَقَدْ دَانَتِ الشَّامُ وَفلَسْطينُ لحكْم الْمُسْلمينَ بَعْدَ أنْ فَتَحَـهُمَـا اللهُ للْمُسْلمينَ فى عَـهْد الْخَليفَـة الأوَّل (أبى بَكْر الصِّـدِّيق) ، والخليفَـة الثَّـانى (عُـمَـرَ بْن الْخَطَّاب) رضى اللهُ عنهما ، وطَرَدَ (هرَقْلَ) إمْبرَاطُور



الرُّوم إلى الْقُسْطَنْطينيَّة عَاصمَة مَمْلَكَته ، كَمَا طُرِدَ جُنُودُهُ ، فَمنْهُمْ مَنْ غَادَرَ الشَّامَ وَفلَسْطينَ إلى الْقُسْطَنْطينِيَّةَ ، وَمنْهُمْ مَنْ هَرَب إلى مِصْرَ ، تلْكَ الدُّرَّة الْغَاليَة فى تَاج الْمَمْلَكَة الرُّوميَّة . .

وكَانَ (الأَطْرَبُونُ) أَحَدَ الْقُوَّاد الرُّوم العظَام الَّذينَ مُنُوا بأشَدِّ الْهَزَائم فى فلَسْطينَ عَلَى أيْدِى الْفَاتحينَ الْمُسْلمين ، فَانْسَحَبَ بقُوَّاته إلَى مصْرَ ، للدِّفَاع عَنْها فى حَالَة إقْدَام الْمُسْلمينَ عَلَى فَتْحِها . .

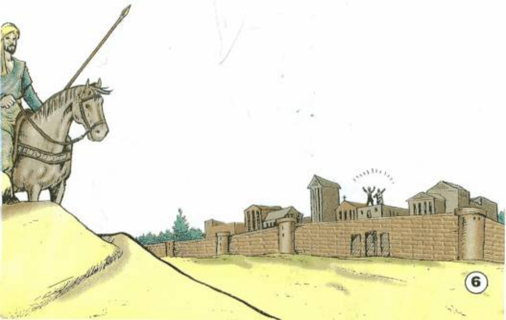
وكَانَ (عَمْرُو بْنُ الْعَاص) أحَدَ الْقُوَّاد الْمُسْلمينَ الْعظَام الَّذينَ شَارَكُوا بِمَهَارَة ومَقْدِرَة فى فُتُوح الشَّام وفلَسْطينَ . .

وقَدْ رَأَى (عَمْرٌو) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بَعْدَ أنْ فَتَحَ اللهُ للْمُسْلمينَ (بَيْتَ الْمَقْدس) ـ أنْ يَسيرَ بقُوَّاته إلى مصْرَ ، فَيَفْتَحَها مُطَارِدًا الْقُوَّاتِ الرُّوميَّةَ الهَاربَةَ بقيَادة (الأَطْرَبُون) قَبْلَ أنْ تُتَاحَ لَهَا الْفُرْصَة

لِلتَّحَصُّنِ فِى حُصُونِ مِصْرَ الْمَنِيعَة ، فَيَصْعُبُ حِينَئِذٍ فَتْحُ مِصْرَ . .

يُضَافُ إلى ذَلِكَ ضِيقُ أَهْلِ مِصرَ بالْحُكْمِ الرُّومِىِّ . .

ولِهَذَا سَارَعَ (عَمْرُو بْنُ الْعَاص) بِمُخَاطَبَة أمير الْمُؤمنِينَ (عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب) طَالبًا مِنْهُ الإِذْنَ بفَتْح مِصْرَ . . فَكَتَبَ إِلَيْه أميرُ الْمُؤْمنِينَ ، يَطْلُبُ مِنْهُ التَّرَوِّى وعَدَمَ التَّسَرُّع ، حَتَّى لا يُعَرِّضَ جُنُودَ الْمُسْلمِينَ لِلْخَطَر . .





فَلَمَّا تَدَارَسَ (عُمَرُ) الْمَوْقِفَ ، واسْتَشَارَ كِبَارَ الصَّحَابَةِ فِى الأمْرِ ، كَتَبَ إلى (عَمْرو) يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَسِيرَ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ فِلَسْطِينَ إلى مِصْرَ ، وسَوْفَ يُرْسِلُ لَهُ مَدَدًا مِنَ الْجَيْشِ كُلَّمَا احْتَاجَ (عَمْرٌو) لِذَلِكَ . .

سَارَعَ (عَمْرو) يُنَفِّذُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عُمَرَ) فَسَارَ بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ أَرْبَعَةَ آلافِ مُقَاتِلٍ مِنْ فِلَسْطِينَ إلى مِصْرَ عَبْرَ صَحْرَاءِ سَيْنَاءَ ، حَتَّى وصَلَ (الْعَرِيشَ) فلم يَلْقَ أيَّ أَثَرٍ لِجُنُودِ الرُّومِ . . فَوَاصَلَ سَيْرَهُ حَتَّى

وَصَلَ إلَى بَلْدَة تُسَمَّى (الْفَرَمَا) فَوَجَدَ الرُّومَ قَدْ تَحصَّنُوا بحُصُونها الْمَنيعَة للدِّفَاع عَنْ حُدُود مصْرَ الشَّرْقيَّة . . وجَيْشُ (عَمْرو) أقَلُّ بِكَثير منَ الْحُشُود الرُّوميَّة . . فَلَمَّا خَافَ (عَمْرٌو) أنْ يؤثِّرَ ذَلكَ فى مَعْنَويَّات جُنُوده ، أوْ يُضْعفَ منْ عَزيمَتهم الْقتاليَّة ، خَطَبَ فى جُنُوده وقَالَ لَهُم :

« إنَّ الْمُسْلمينَ كَانُوا قلَّةً دَائمًا ، فى كُلِّ مُوَاجَهَة لَهُم مَعَ الْفُرس والرُّوم ، وإنَّهُم قَهَرُوا عَدُوَّهُمْ ، لأنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ ، فَكَانَ النَّصْرُ حَليفَهُم » . .

ثُمَّ تَقَدَّمَ (عَمْرُو) بجُنُوده البَوَاسل ، فَحَاصَرَ حُصُونَ (الْفَرَمَا) الْقَوِيَّةَ بِكُلِّ مَا فيها منْ جُنُود وَعَتَاد ، مُدَّةَ شَهْر ، ثُمَّ فَتَحَها اللهُ عَلَيْه ، فَقَهَرَ جُنُودُهُ جُنُودَ الرُّوم الَّذينَ يَفُوقُونَهُم عَدَدًا وعُدَّةً ..

ثُمَّ تَقَدَّمَ (عَمْرُو) بجُنْد الإسْلاَم ، حَتَّى وَصَلَ إلى قَرْيَة (بلْبَيْسَ) فى الشَّرْقيَّة ، فَفَتَحَها دُونَ مُقَاوَمَة ، وأَقَامَ بها هُوَ وجُنُودُهُ





بَعْدَ أنْ انْضَمَّ إلَيْهمْ بَعْضُ الْبَدْوِ منَ الْمَصْرِيِّينَ ..

عَلِمَ (الْمُقَوْقِسُ) حَاكمُ مِصْرَ الرُّومِىُّ بقُدُوم قُوَّات الْمُسْلمينَ لفَتْح مِصْرَ ، فَأرْسَلَ إلَى (عَمْرو) بَعْضَ الأسَاقفَة والقُسُس ليُفَاوضُوهُ علَى الصُّلْح ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ (عَمْرُو) وخَيَّرَهُم بَيْنَ وَاحد منْ أُمُور ثَلاثَة :

إمَّا الدُّخُولِ فى الإسْلاَم ،

أَوْ دَفْع الْجِزْيَة ،

أَوْ الْحَرْب . .

وقَالَ لَهُمْ (عَمْرو) :

إنَّ الْمُسْلمينَ بأمْر الله مُفْتَتِحُون بلادَكُم ، وقَدْ وَعدَنَا الرَّسُولُ ﷺ بذَلكَ . .

عَادَ الأَسَاقفَةُ بشُرُوط (عَمْرو) إلى (الْمُقَوقِس) فَرَفَضَ الدُّخُولَ فى الإسْلاَم ، أوْ دَفْع الْجِزْيَة ، وأعَدَّ جَيْشًا قِوَامُهُ اثْنَا عَشَرَ ألْفًا منَ الْجُنُود سَارَ به إلَى (بلْبيسَ) لأخْذ الْمُسْلمينَ عَلَى غِرَّة . .

لكنَّ جَيْشَ الْمُسْلمينَ بقيَادَة (عَمْرو) تَنَبَّه لهَذه الْخُدْعَة ، فَتَصَدَّى لجيْش الرُّوم الْكَثير ، وقَتَلَ قائدَهُ (الأطْرَبُونَ) وحَقَّقَ بذَلكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . .

ثُمَّ وَاصَلَ جَيْشُ (عَمْرو) قَاصدًا (مصْرَ) بَعْدَ أنْ وَصَلَهُ الْمَـدَدُ منَ الْخَليـفَـة (عُـمَـرَ بْن الْخَطَّاب) وقوَامُهُ أرْبَعَةُ آلاف جُنْدىّ . .

نَزَلَ جُنُودُ (عَـمْـرو) (مـصْـرَ) قَـريبًـا منْ حـصْن (أُمِّ دنينَ) الْمَنيع عَلَى النِّيل ، حَيْثُ يُوجَدُ ميـنَاءٌ







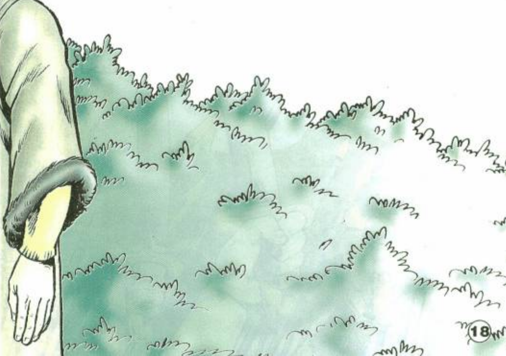
فيــه الْكَثِيـرُ من سُفُن الرُّوم وَمَـرَاكِبـهم ، وهَذَا الْحِـصْنُ يَقَعُ عَلَى مَقْـرُبَةٍ من حِـصْن (بَابِلْيُـونَ) الْعَظِيم . .

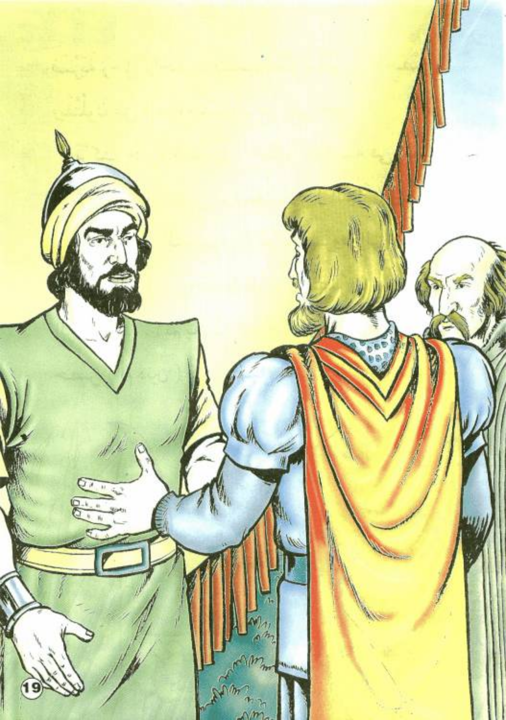
وأَطْلَقَ (عَمْرٌو) عُيُونَهُ ومَرَاصِدَهُ لتَأْتىَ لَهُ بأخْبَار الرُّوم وتَحَصُّنَاتهم ، ومَدَى اسْتعْدَادهمْ للْقتَال . . فَأَتَتْهُ الأَخْبَارُ بأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ اقْتحَامَ حُصُونِ (مِصْرَ) بسُهُولَة بهَذَا الْعَدَد الْقَليل الَّذى مَعَهُ منْ جُنْد الإسْلاَم ، خَاصَّةً حصْنُ (بَابلْيُونَ) الْمَنيعُ ، لَكنَّ

(عَـمْـرو) ذَلكَ القَـائدَ الذَّكىَّ الطَّمُـوحَ آثَرَ عَـدَمَ التَّراجُع بجُنُوده ، حتَّى لا يَطْمَعَ فيه جُنُودُ الرُّوم .. فَكَّرَ (عَـمْـرُو) أولاً فى الاسْـتيـلاَء عَلَى حِـصْن (أُمِّ دنين) لأَنَّهُ أضْعَفُ منْ حِصْن (بَابلْيُونَ) ولأَنَّ الاسْتيلاَءَ عَلَيْه يُتيحُ لعَمْرو أنْ يَسْتَوْلىَ عَلَى السُّفُن الرَّاسـيَـة فى الْمـينَاء الْقَـريب منْهُ ، وحَـتَّى يُحَـقِّق (عَـمْـرُو) نَصْـرًا سَريعًا يُنَاورُ بَعْدَهُ لكَسْب الْوَقْت ، حَتَّى يَصلَهُ مَدَدٌ جَديدٌ منْ أمير الْمُؤْمنينَ (عُمَرَ بْن الْخَطَّاب) ..

وبالْفعْل يَتقَدَّمُ (عَمْرو) بجُنُود الإسْلاَم ، فَيُحَاصر حصْنَ (أُمِّ دنين) ويَمْنَعُ وُصُولَ الْمَدَد والطَّعَام إلَيْه . . ثُمَّ تَبْدَأُ الْمُنَاوَشَاتُ بَيْنَ الرُّوم الَّذينَ يَخْرُجُونَ من الْحصْن فى جَمَاعَات ، والْمُسْلمينَ . .

وفى هَذه الأَثْنَاء يَصلُ الْمَدَدُ لجَيْش الْمُسْلمينَ ، فَيَفْزَعُ الرُّوم منْ ذَلكَ ، ويَتَحَصَّنُونَ دَاخلَ الْحصْن . . ويَتَقَدَّمُ (عَمْرو) وجُنُودُهُ منَ الْحصْن ، فَيَضْربُونَ





ضَرْبَةَ رَجُل وَاحد ، فَيَقْتَحِمُونَ أبْوَابَ الْحِصْن ، ويَقْتُلُونَ مَنْ فيه ، ويَأْسِرُونَ مَنْ بَقِىَ حَيًا . .

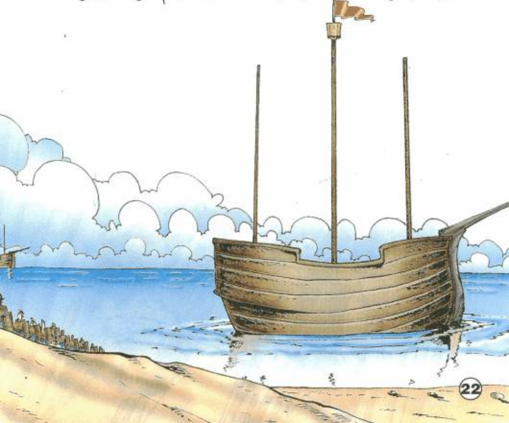
ويَرْكَبُ جُنُودُ (عَمْرو) السُّفُنَ الرَّاسيَةَ فى الْمينَاء الْقَريب منَ الْحصْن ، فَيَعْبُرُونَ (النِّيلَ) ويَصلُونَ إلى أَهْرَامات الْجِيزة . . ثُمَّ يَسيرُونَ إلى الْفَيُّوم ناشِرِينَ الْفَزَعَ بَيْنَ حَاميَة الرُّوم ويَنْتَصرُونَ عَلَى جُنُود الرُّوم هُنَاكَ . . ثُمَّ يَعُودُ (عَمْرُو) بجَيْشه مَرَّةً أُخْرَى إلَى حصْن (أُم دنين) فَيَسْتَقْبلُ الْمَدَدَ الَّذى أرْسَلَهُ لَهُ

الْخَلِيفَةُ (عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب) بقيادة الصَّحَابىِّ الْجَليل (الزُّبَيْر بن الْعَوَّام) ، وقدْرُهُ ثمانيةُ آلاف مُقَاتل . .

ويَجْمَعُ (عَمْرو) كبَارَ الصَّحَابَة الَّذينَ خَرَجُوا للْغَزْو مَعَهُ ، ويَسْتَشيرُهُم فى كَيْفيَّة اسْتدْرَاج الرُّوم للْخُرُوج منْ حصْن (بَابلْيُونَ) . .

ولكنَّ عُيُونَ (عَمْرو) ومَرَاصدَهُ تُخْبرُهُ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَخْرُجونَ لقتالهمْ غَدًا ، حَتَّى لا يَظْهَرُوا أَمَامَ الْمصْريِّينَ بمَظْهَر الْجُبْن والْخَوْف منَ الْمُسْلمينَ . .

يَضَعُ (عَمْرُو) خُطَّتَهُ للقَاء الرُّوم فى (الْعَبَّاسيَّة)
وتَتلَخَّصُ الْخُطَّةُ فى صُنْع كَمِينَيْن للرُّوم .. حَيْثُ
يَخْرُجُ خَمْسُمائةٍ منْ جُنُود (عَمْرو) فى أَثْنَاءِ اللَّيْل ،
ويَتَّجهُونَ إلَى حصْن (أُمِّ دنين) ، وخَمْسُمائةٍ
آخَرُونَ يَتَّجهُونَ تَحْتَ جُنْح الظَّلاَم إلى قَلْعَة الْجَبَل
ويَخْتَبئُونَ هُنَاكَ ، فَإذَا بَدَأَ الْقتَالُ هَجَمَ هَؤُلاَء وهَؤُلاَء





منَ اتِّجَاهَيْن مُخْتَلفَيْن فَيَظُنُّ الرُّومُ أنَّهُم يُحَاربُونَ ثَلاَثَةَ جُيُوش للْمُسْلمينَ . .

وفى الصَّبَاح الْبَاكر تَعَاهَدَ الرُّومُ عَلَى الْقتَال حَتَّى النَّصْر أو الْمَوْت ، وخَرَجُوا منْ حصْنهمْ للقَاء جُنُود (عَمْرو) فَلَمَّا اشْتَدَّ الْقتَالُ أطْبَقَ عَلَيْهمَا الْكَمينَان اللَّذَان أعَدَّهُمَا (عَمْرُو) منْ قَبْلُ ، فَوَقَعَ الاضْطرَابُ والْهَزيمَةُ فى صُفُوف الرُّوم ، فَقَتَلَ الْمُسْلمُونَ منْهُمْ أعْدَادًا كَثيرَةً ولاذَ الآخَرُونَ بالْفرَار . .

وحقَّقَ الْمُسْلمُون انْتصَارًا رَائعًا فى هَذه الْمَوْقعَة الَّتى سُمِّيَتْ بمَوْقعَة (عَيْن شَمْس) .. ثُمَّ اسْتَوْلَى (عَمْرُو) عَلَى (مصْرَ) كُلِّهَا دُونَ قتَال ..

اتَّجَهَ (عَمْرُو) بَعْدَ ذَلكَ إلَى إقْليم (الْفَيُّوم) فَاسْتَوْلَى عَلَيْه دُونَ قتَال ، ثُمَّ عَادَ بجُنُوده ليُحَاصرَ حصْنَ (بَابلْيُونَ) بمَنْ فيه منَ الْقُوَّات الرُّوميَّة الْمُنْهَزمَة .. فَدَامَ الْحصَارُ شَهْرًا ، كَانَ الرُّومُ خلالَهُ يَقْذفُونَ الْمُسْلمينَ بالْمَجَانيق ، والْمُسْلمُونَ يَرُدُّونَ عَلَيْهم بالسِّهَام وَالْحجَارَة .. وفى أثْنَاء الْحصَار يَخْرُجُ

(الْمُقَوْقسُ) حَاكمُ مصْرَ وجَمَاعَةٌ من أصْحَابه سرًا ويَتَفَاوَض مَعَ (عَمْرو) عَلَى افْتدَاء أنْفُسهمْ بالمال ، كَىْ يَرْحَلَ الْمُسْلمُونَ ، وتَعُودَ مصْرُ لحكْم الرُّوم . .

لَكنَّ (عَمْرو) يُصرُّ عَلَى وَاحدَة منْ ثَلاَث :

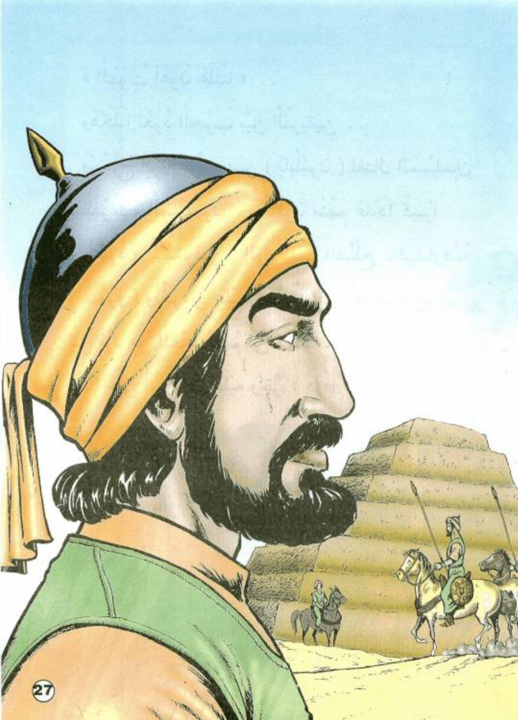
إمَّا الدُّخُول فى الإسْلاَم ،

أوْ دَفْع الْجزْيَة ،

أوْ مُوَاصلَة الْقتَال . .

ويَعْرضُ (الْمُقَوْقسُ) عَلَى مَنْ مَعَهُ أنْ يُوَافقُوا عَلَى الْخُضُوع للْمُسْلمينَ ، ودَفْع الْجزْيَة ، بَدَلاً منَ الْقتَال والْمَوْت والأَسْر والتَّشَرُّد ، فَيَرْفُضُونَ ويَقُولُونَ لَهُ :





« الْمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيْنَا » . .

وهكَذَا تَعُودُ الْحَرْبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْن . .

ويَخْرُجُ الرُّومُ منْ حصْن (بَابلْيُونَ) لقتَال الْمُسْلمينَ فَيَظْفَرُ بهم الْمُسْلمُونَ ، ويَقْتُلُونَ منْهُمْ عَدَدًا كَبيرًا . .

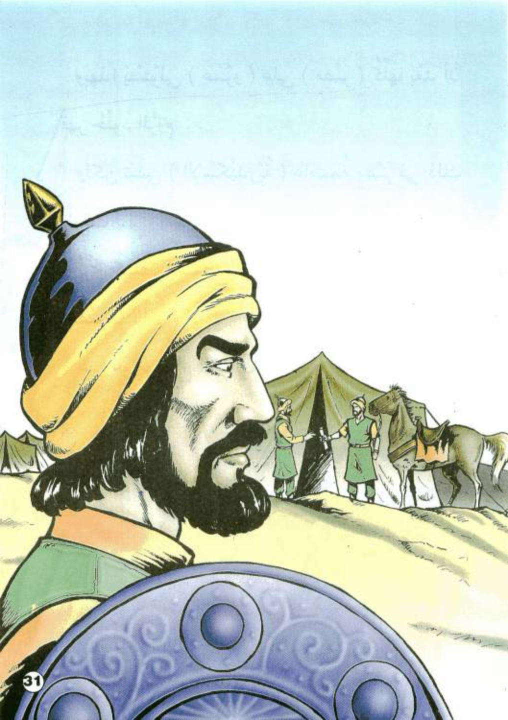
ويَعُودُ (الْمُقَوْقسُ) إلَى طَلَب الصُّلْح ، فَيُفَاوضُهُ (عَمْرُو) ويَفْرضُ عَلَيْه جزْيَةً مقْدَارُهَا دينَاران عَلَى كُلِّ فَرْد منَ الْقبْط يُقيمُ فى مصْرَ ، ويُوَقِّعُ بَيْنَهُمَا عَقْدُ بهَذَا عَلَى أَنْ يُوَافقَ عَلَيْه ويُقرَّهُ (هرَقْلُ) مَلكُ الرُّوم . .

وَيُرْسلُ (الْمُقَوْقسُ) الْعَقْدَ إلى الْقُسْطَنْطينيَّةَ لِيُقِرَّهُ (هِرَقْلُ) ، فَيَثُورُ (هِرَقْلُ) لذَلكَ ، ويَتَّهِمُ (الْمُقَوْقسُ) بِالْخيَانَة ، ثُمَّ يَنْفيه طَريدًا منْ بلاَده ، ويَرْفُض إقْرَارَ الصُّلْحِ مَعَ (عَمْرو بن الْعَاص) . .

ويَعُودُ الْقتَالُ بَيْنَ الفَريقَيْن مَرَّةً أُخْرَى ، فَيَرْمى الرُّومُ بقطَع الْحَديد حَوْلَ أبْوَاب الْحصْن ، حَتَّى لا يَسْهُلَ عَلَى الْمُسْلمينَ اقْتحَامُهَا ، لَكنَّ الْمَرَضَ سَرْعَانَ مَايَفْتكُ بجُنُود الْحصْن بَعْدَ حصَار دَامَ سَبْعَةَ شُهُور . .

ويَصْعَدُ (الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام) ومَجْمُوعَةٌ منْ أصْحَابه أسْوَارَ الْحصْن ، بَعْدَ أنْ وَهَبُوا أنْفُسَهُمْ للْمَوْت فى سَبيل الله .. ثُمَّ يَقْفِزُونَ دَاخلَ الْحصْن مُكَبِّرِين ، فَيَظُنُّ الرُّومُ أنَّ الْمُسْلمينَ قد اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحصْن ، فَيَهْرُبُونَ تَاركينَ الْحصْنَ .. ويَدْخُلُ الْمُسْلمُونَ الْحصْنَ ويَسْتَوْلُونَ عَلَيْه دُون قتَال ..





وبهَذَا يَسْتَوْلى (عَمْرُو) عَلَى (مِصْرَ) كُلِّهَا بَعْدَ أنْ قَهَرَ جُنُودَ الرُّوم . .

ولَكنْ تَبْقَى (الإسْكَنْدَرِيَّةُ) عَاصِمَةُ مِصْرَ فى ذَلك الْوَقْت . .

تُرَى كَيْفَ اسْتَطَاعَ (عَمْرو) وجُنُودُهُ اقْتحامَ حُصُونِها ؟!

هذا هُوَ موضُوع الكِتاب التالى ، إنْ شَاءَ اللهُ .